

سؤال المنهج في النقد الثقافي- المشروعية والإمكان

The question of method in cultural criticism - legitimacy and possibility-

عبد الرحمان وجليسي

جامعة أبو القاسم سعد الله

الجزائر / 02

abderrahmen.oughlici@univ-alger2.dz

الربيع بوسلامت

جامعة أبو القاسم سعد الله

الجزائر / 02

مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائرية
Errabia.bousellama@univ-alger2.dz

تاريخ الارسال: 2024/02/21 تاريخ القبول: 2024/06/29 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

يتناول هذا البحث أحد أهم التوجهات النقدية المعاصرة، فقد شكّل ظاهرة بارزة رافقت فكر مابعد الحداثة، وجاء كردّة فعل على النظريات والمناهج الأدبية كالسيمائية والتفكيكية والبنويّة، فالنقد الثقافي نشاط نقدي يشغل على كشف الأنساق الثقافية المضمرّة، يستهدف الخطابات الأدبيّة وغير الأدبيّة، وهو ليس مجالا معرفيًا مستقلًا قائمًا بذاته، وإنما منفتح على تخصصات معرفيّة ونظريات ومفاهيم مختلفة. تحاول هذه الدراسة الوقوف على المرجعيات النظرية للنقد الثقافي، وطبيعة النصوص التي يستهدفها.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، المنهج، الخطاب، الأنساق المضمرّة، النص.

Abstract:

This research deals with one of the most important contemporary critical trends, as it constituted a prominent phenomenon that accompanied post-modern thought, and came as a reaction to literary theories and approaches such as semiotics, deconstruction, and structuralism. Cultural criticism is a critical activity that works to reveal implicit cultural patterns, targeting literary and non-literary discourses, and it is not a field of knowledge. Independent and self-contained, but open to different cognitive specializations, theories, and concepts.

* المؤلف المرسل.

This study attempts to determine the theoretical references of cultural criticism and the nature of the texts it targets.

Keywords: cultural criticism, method, discourse, implicit patterns, text

مقدمة:

يشهد الخطاب النقدي المعاصر ثورة مست أركانه وبنياته، إذ تعددت المدارس والمناهج التي تهتم بكيونة النص، غير أنها وقفت عاجزة؛ بسبب قصورها في مقارنة النص والإحاطة بإطاره العام، ومع تجاوز الحداثة ومقولاتها في ستينيات القرن الماضي عقب الحربين العالميتين، وبروز أفكار مابعد الحداثة؛ التي أحدثت نقلة معرفية نقدية، ظهر النقد الثقافي كبديل معرفي استقطب اهتمام المفكرين والنقاد، وجاء كرد فعل على البنيوية، التي جعلت من النصوص بنية مغلقة على ذاتها، فالنص فضاء مفتوح قابل للقراءة والتأويل، ولم يعد بنية مغلقة، متحجرا على ذاته صعب التحليل والفهم، فبقدر ما هو الأدب "خطاب له أدواته واجراءاته ومميزاته البنيوية التي تميزه عن غيره من الخطابات الأخرى كيفما كان نوعها. فهو نص منفتح على غيره من النصوص وعلى الإنسان والتاريخ والمجتمع"⁽¹⁾.

لقد ساهمت الدراسات الثقافية مع تأسيس مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة سنة 1964 إلى التمهيد لميلاد النقد الثقافي، فالدراسات الثقافية قد غيرت زاوية النظر إلى النص، إذ أنها "صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه وما ينكشف عنه من أنظمة ثقافية، فالنص هنا وسيلة وأداة، وحسب مفهوم الدراسات الثقافية ليس النص سوى مادة خام يستخدم لاستكشاف أنماط معينة؛ فالنص ليس هو الغاية القصوى للدراسات الثقافية وإنما غايتها المبدئية الأنظمة التي فعلها الثقافي في أي تموضع كان بما في ذلك تموضعها النصوي. والنقد الثقافي تبني تلك النظرة الثاقبة في التعامل مع النص والانفتاح على الخطاب بأنواعه"⁽²⁾.

ومن أجل الإلمام بجوانب هذه الدراسة، جاءت خطة البحث في ثلاث عناصر أساسية؛ وقد أوضحت في المطلب الأول ماهية النقد الثقافي وصناعته ومرجعياته النظرية، أما المطلب الثاني الذي عنوانه بالنقد الثقافي وإنتاج المعرفة، فتحدثت فيه عن طبيعة النصوص التي يستهدفها النقد الثقافي، وماهي طبيعة أدواته: هل هي من صميم نموذج أم أنها من نماذج ونظريات أخرى. وفي المطلب الثالث عرجنا على مفهوم الكفاءة المنهجية للنقد الثقافي، نفصل

فيه عن إمكانية الحديث عن كفاءة منهجية مخصصة بالنقد الثقافي؛ وهل هناك إمكانية لقيام منهج مخصص لهذا النقد، أم أنه يقتات على موائد المناهج والتخصصات الأخرى؟

مشكلة الدراسة

- يمكن إضاءة جوانب هذه الدراسة بطرح جملة من التساؤلات أهمها:
- ما النقد الثقافي؟ وما هي مرجعياته النظرية والمفاهيمية؟
- ما علاقة النقد الثقافي بالثقافة؟
- ما طبيعة النصوص التي يستهدفها هذا النقد؟ وما غايته من التحليل؟
- ما هي آلياته التحليلية؟ وما علاقته بالمناهج والتخصصات الأخرى؟

أهمية الدراسة

يمكن القول أنّ هذه الدراسة تروم معالجة مقولة مفترضة أساسها إبستمولوجي بحت، يبحث في إمكانية تأييد منهج للنقد الثقافي، يصير فيه هذا النوع من النشاط منهجا له قاعدة علمية رصينة، وأداة تحليلية محدّدة، وهذا الطموح مشروع في رأينا، خاصة في ظلّ تغير النّظر إلى زاوية النصّ، مع إمكانية الاستفادة من مضامين التحليل الأخرى، واستدماجها ضمن مفهومية النقد الثقافي نظريّة ومنهجاً.

منهج الدراسة

لكل دراسة منهج، والمنهج صناعة ليست بريئة، فهي تسوق للنموذج التي يستبطنها، ولعلّ دراستنا هذه تستعين بالمنجز التأويلي في قراءة ونقد النصوص والخطابات، ولا نتحدث هاهنا عن تأويلية للنصوص الإبداعية، بل نتقصّد تأويلية للنصّ النقدي بوصفه خطاباً محمولاً على فعل معرفيٍّ موجّه، وإذا كان موجّهاً فلا بدّ من فاعلية تأويليّة تخلص الدرس النقدي من عقم آليات الوصف المعهودة.

01/ النقد الثقافي والصناعة النظرية، في سلطة المرجع

من الضروري أن نقرّ - أولاً - أنّ السّاحة النقّدية الحديثة والمعاصرة تشهد جدالاً واسعاً على المستويين النظري والتطبيقي، من خلال أهمّ النظريات النقّدية الموجّهة لاستنطاق النصوص الأدبية، فانتقل الاهتمام من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي، الذي يعدّ من أهمّ الظواهر المعرفية لما بعد الحداثة، وهو ما جعله ميداناً خصباً لعدد الدّارسين في محاولة

للقبض وتحديد دلالاته ومجال توظيفه وآلياته الإجرائية وأدواته التحليلية، غير أنّ حفرا أركيولوجيا داخل هذا المصطلح يقودنا مبدئياً إلى الحديث عن الأصول والاتجاهات النقدية التي شكّلت اللبنة الأولى لقيام النقد الثقافي. فكما هو معلوم فإنّ النقد الثقافي يستعين في شقيه النظري والإجرائي بعدد التصورات السياقية والنسقية، غير أنّ المعالم الكبرى التي أسهمت في تشكّله النظري تمحورت في إسهامات مدرسة فرنكفورت، ومنجزات ما بعد البنيوية، ومقولات التفكيكية وأركيولوجيا فوكو، التي كان لها تأثير مباشر في النقد الثقافي.

إنّ إسهامات المفكر والفيلسوف "ثيودور أدورنو" أحد الأعضاء المؤسسين لمدرسة فرانكفورت مهمة في هذا المجال، حيث تعتبر هذه المدرسة "أهم فرع من فروع النقد الثقافي في الماركسية الغربية. وطوّرت هذه المدرسة منهجا قويا في التحليل الثقافي، خاصا كما نراه في أعمال روادها الكبار أمثال ثيودور أدورنو"⁽³⁾، إذ أفضى إلى بلورة مصطلح النقد الثقافي وهو من أوائل الباحثين الذين استعملوا المصطلح، وبالتحديد في دراسته التي ظهرت بكتابه (المنظورات) في ثلاثينيات القرن الماضي، وبمقال له بعنوان "النقد الثقافي والمجتمع"، وهو من أهم المقالات التي تؤسس وتنظر لمفهوم النقد الثقافي من جهة وتثور على النقد التقليدي بمختلف مدارس ومناهجه من جهة أخرى، "وفيه يطرح فكرة أن النقد الثقافي مفهوم برجوازي أنتجه المجتمع الاستهلاكي ولا بدّ لنا أن نعي حقيقته بوصفه كذلك، فهو يحوّل الثقافة إلى سلعة، ويخضعها لدوائر التشيؤ والتسليع والاستهلاك"⁽⁴⁾. ففكرة أدورنو تنطلق من اعتبار أولا أنّ الثقافة بضاعة، وجاءت حسبه لخدمة الرأسمالية والأهداف المرسومة لها لبسط السيطرة الاقتصادية، فهي سلعة كباقي السلع الأخرى، تخضع لمنطق العرض والطلب. غير أنّ هناك من يربط الميلاد الفعلي للنقد الثقافي إلى مركز بريمنغهام للدراسات الثقافية، مع بداية ستينيات إلى سبعينيات القرن الماضي، عندما نشر المركز صحيفة تتناول وسائل الإعلام، والثقافة الشعبية، والثقافات الدنيا، والأدب، ومواضيع متنوعة، لم يستمر صدور الصحيفة طويلا، إلا أن تأثيرها كان كبيرا في مستقبل الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، كما أسهمت دراسات ريموند وليامز وريتشارد هوجارت و ستيفارت هول في التأسيس لهذا النوع من النقد في شقيه النظري والتطبيقي.

وإذا أردنا أن ننصف رائد المدرسة الأمريكية "فنسنت ليتش" وجب أن نشير إلى أنّه أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي، بل "ويجعله رديفا لمصطلحي ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية،

حيث نشأ الاهتمام بالخطاب بما أنه خطاب، وهذا ليس تغييراً في مادة البحث فحسب ولكنه أيضاً تغيير في منهج التحليل⁽⁵⁾، فلقد كان همّ ليتش دراسة الخطاب وفق منهجية جديدة تعامل النصوص بعيداً عن البعد الجمالي، بحيث ركّز على الأنساق المضمرّة التي تتوارى خلف اللّغة.

كما دعا ليتش " إلى ضرورة نقد ثقافيّ مابعد بنيوي يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية المستمدة من علم الاجتماع وعلم التاريخ والتحليل النفسي والسيمانيات والتفكيكية، ويسعى إلى مبارحة القواعد المؤسسية التي تقيد النقد عادة دون إحداث أي نوع من القطيعة في صلب النظرية النقدية، لكي ينصبّ اهتمامه على النتاج الأدبي غير الرسمي أو غير المعترف به رسمياً أي أدب المهمشين والأقليات، وتتحول بؤرة التركيز في النقد الثقافي إلى النصّ بوصفه موطن المضمرة أي الأنساق الثقافية"⁽⁶⁾، فالنقد الثقافي عند ليتش يقوم على ثلاث معالم " أولاً، أنّ اهتمام النقد الثقافي لا يقتصر على الأدب المعتمد؛ ثانياً، أنّه يعتمد على نقد الثقافة وتحليل النشاط المؤسسي بالإضافة إلى اعتماده على المناهج النقدية التقليدية؛ وثالثاً، وهي إبراز سماته. إنّّه يعتمد على مناهج مستقاة من اتجاهات مابعد البنيوية كما تتمثّل في أعمال باحثين مثل: بارت ودريدا وفوكو"⁽⁷⁾.

إضافة إلى ذلك، هناك نظريّات ومدارس ساهمت هي الأخرى " في إفراز النقد الثقافي والدراسات الثقافية إلى جانب مدرسة بريمنغهام ومدرسة فرانكفورت كنظرية مابعد الحداثة، والنظرية التفكيكية، ونظرية التعددية الثقافية، والنقد النسوي، والمادية الثقافية، والماركسيّة الجديدة، ونظرية الجنوسة ، والنقد الكولونيالي، ونظرية الاستجابة والتلقي، وثقافة الوسائل والوسائط الإعلامية، والخطاب السردّي التكنولوجي"⁽⁸⁾، وكلّها تيارات لها مضامين متقاربة مع فكرة تحليل الثقافة التي تحلّل نسق النصّ/الخطاب، وتلتقي كلّها في محور نقد الثقافة بشكلها المهيج الجديد.

أمّا إذا أدركنا وجوهنا إلى الساحة النقدية العربية، نجد أنّ التّأقّد السّعودي عبد الله الغدامي الذي استلهم فكرة النقد الثقافي وحاول تطبيقها في المجال الثقافي العربي، خاصة في مؤلّفه: (النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، إذ وضع- حسب تصوّره- الأسس القرائية الجديدة للنصوص؛ من الأدبية إلى الثقافية، مستثمراً الفكرة القائلة بأنّ النقد الثقافي يعمل على كشف الأنساق الثقافية في النصوص الأدبية. هذه الأنساق المخبوءة التي تجاوزت وعي المؤلّف، بسبب أنّ الثقافة هي التي قامت بفرضها في هذه النصوص، من خلال

هذا نجد أنّ النّقد الثّقافي " معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثّقافي بكلّ تجلّياته وأنماطه وصيغه، ماهو غير رسمي وغير مؤسّساتي وماهو كذلك سواء بسواء... وهو لذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النّقد الأدبي، وإنّما همّه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/الجمالي"⁽⁹⁾، وهذا معناه، أنّ الثّقافة وأنساقها لها حيل نسقيّة تمكّنها من تمرير نموذجها الثّقافي ملتبسا بمفهوم الجمال.

تأسيسا على ما سبق، يمكن القول أنّ النّقد الثّقافي من النّشاطات المنفتحة على أشكال معرفيّة مختلفة، كالآداب بكلّ أجناسه والفنون بكلّ أشكالها، بل هو نتاج تداخل مناهج سياقيّة ونسقيّة، واتّجاهات نقديّة متباينة، ليتبلور ويتشكّل خطابه بظهور تيارات ما بعد الحداثيّة، بل يمكن أن نقول أنّه " استراتيجيّة مابعد بنيويّة لنقد النّصوص والخطابات، بحيث لم تعد شعريّات/جماليّات النّص موضع اهتمام من طرف هذا المنحى الجديد، بل لقد صار ينظر إلى النّص على أنّه تجلّ لمضمون/ واقعة ثقافيّة"⁽¹⁰⁾، وهذا التّغيّر في زاوية النّظر مرّدّه الأساس هو الانكسار الخطير الذي حدث في نظريّة المعرفة المعاصرة من الحداثة إلى ما بعدها، هذا فضلا عن أنّ " النّقد الثّقافي لا يمارس عمله كأنّه خطاب متخصص مثل الخطاب الفلسفيّ أو السّياسيّ أو الاقتصاديّ"⁽¹¹⁾، بل إنّ رقعة اشتغاله تمنحه شكلا غير محدّد من الملامح، فهو ليس خطابا مخصوصا بمجال دون آخر، بل هو نشاط عابر للنّص/ الخطاب، وإذ هو كذلك، فهو ينفذ إلى عمق الخطاب باحثا عن بنيات متجانسة لتفكيكها، وعن أنساق مخبوءة لتفجيرها، لأنّه يتصوّر أنّ هذه البنيات والأنساق محمولات ضمنيّة للثقافة الموجّهة أو الصّادرة عن فعل مؤسّساتيّ ما، وكذلك النّقد الثّقافي " ليس بحثا أو تنقيبا في الثّقافة، إنّما هو بحث في أنساقها ومشكلاتها المركّبة والمعقّدة، وبذا فهو نشاط إنسانيّ يحاول دراسة الممارسات الثّقافية في أوجّهها الاجتماعيّة والذاتيّة بل في تموضعها خاصّة بما في ذلك تموضعها النّصوصي"⁽¹²⁾، وهذا مكنم الجدّة في هذا النوع من الاشتغال، فهو يتجاوز فكرة النّص المغلق التي روّج لها الطرح الحداثي/ البنيوي، بل يتصوّر النّص حادثة ثقافيّة، فهو بذلك مفتوح على الثّقافة بشقّي تمظهراتها، وأنساقها، وبدلالاتها الاجتماعيّة المتباينة.

خلاصة لهذا:

إنّ النّقد الثّقافي بالنظر إلى حادثة هذا المصطلح، لازال يتعذر وضع تعريف جامع له، وهذا راجع للفظلة " ثقافة" التي تتسم بالشمولية والضبابيّة، وليس من الممكن حصره في تعريف دقيق، لأنّه مرتبط بمرجعيات متباينة تشكّله وتننجه، وتجعل منه مظلة تضمّ

اتجاهات نقدية عديدة (التاريخانية، النقد النسوي، الكولونيالية...) تنطلق منه وتعود إليه، هذا بالإضافة إلى تأكل بنيات المناهج بفعل الهزات الكبرى التي أحدثتها موجات ما بعد الحداثة، ولكي لا تحدث لحظة تأزم لهذا النموذج ويسقط في سيرورة خطابية، كان لزاما على منظري النقد الثقافي- على اختلاف توجهاتهم-، إنجاز وعي معرفي/ مراجعاتي للمقولات التي يستند عليها هذا التوجه الجديد.

02 / النقد الثقافي وإنتاج المعرفة

لكل ممارسة معرفية غاية، وهذه الغاية لابد وأن تنسجم مع مفهومية الخطاب الذي يمارسها وتمارسه. إن لحظة المنطلق تتأسس على مرتكز يحرزها من وثوقيات المعرفة، يدفعها إلى تخطيط إمكانات تداولية جمة، ليحرز الفعل النقدي من سطوة العجز والاستيلاء. وأما لحظة الاستراتيجية فتتم عن آليات محدّدة يتم بواسطتها تحريك الرواسب وتفكيك الأنساق. فتأتي لحظة المأل التي هي اللحظة التي يكتمل فيها النموذج. بالنسبة للنقد الثقافي فالأمر مختلف بعض الشيء، فمرجعيات التنظير متعدّدة ومتباينة، ولعلّها لا تقف على جدالة واحدة، فغالبيتها تيارات متناقضة يجمعها النموذج النسقي الموجّه والهجين، يرى آرثر إيزابجر في هذا الصدد أنّ " النقد الثقافي كما أعتقد هو مهمة متداخلة مترابطة، متجاوزة متعددة...، وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد، وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدوره أيضا أن يفسّر نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والإنثربولوجية...الخ) ودراسات الاتصال، وبحث في وسائل الإعلام، والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميّز المجتمع والثقافة المعاصرة" (13)، وإذا كان النقد الثقافي متضمّنا كل هذه الاشتغالات، فكيف تتصوّر شكل الأداة/ التحليل الذي يستخدمه؟

إن تعدّد المصادر الإجرائية للنقد الثقافي لتشمل مجالات معرفيّة ونقدية واسعة في مقاربتة للنصوص الأدبية الراقية وغير الراقية، وغير المعتمدة والتصوص الهامشية، جعلته لا ينفك يستند على الأدوات المنهجية التي يركّز عليها النقد الأدبي أو المناهج والنظريات المتعددة، إنّها أدوات ليست من صميم نموذج، بل تنتهي إلى معارف ومنهاجيات مختلفة، ومتباينة، وهذه المنهاجيات هي التي تكفل له استعارة بعض الأدوات والمفاهيم والإجراءات قصد تطويعها داخل نموذج المخصوص، ووفق شروط خطابه المعلن، بحيث " يمكن أن

تبادل الخطابات من خلال تصارعها مع بعضها البعض استعارة العناصر التي تساعد على إعادة تكييف بنيتها وتنشيط خصائصها وتجديد بعض منطلقاتها لكي تستطيع مواجهة نقيضها والاستمرار في تحدي مشروعيتها، وهذا أمر طبيعي، فالخطابات في سياق ثقافي حضاري بعينه تتشارك نفس الإشكاليات، وتواجه نفس التحديات، أليس التحدي المطروح أمام كل الخطابات المنتجة هو تحدي دخول المستقبل والتصدي لخطر الخروج من التاريخ⁽¹⁴⁾، لذلك، فإن خطاب النقد الثقافي يفتقر إلى م خصوصية ثقافية / خطابية واضحة، فهو نشاط يجمع بين شتات ورواسب الخطابات ليركب بينها تركيبا جينالوجيا هجيناً، بحيث يحدث أن تنصهر هذه المكونات في نسق جينالوجي واحد، وفي بوتقة نظام خطابي واحد؛ صحيح أنه نظام بنيوي بالمفهوم الشائع للكلمة، لكنه مفتوح ومرن على منهجيات أخرى من شأنها أن تنظم وتنصهر في طبقاته الرجراجة المتحركة.

إننا لا نتصور في هذا الصدد، أن للنقد الثقافي أدوات منهجية مخصصة، فهو لازال يفتقر إلى ضبط منهجي دقيق يجعله مستقلاً بمادته ومنهجه عن أدوات النقد الأدبي المعروفة. إن هذا الضبط لا يتأتى إلا بجهاز مفهومي من صميم النموذج، فكل خطاب لابد وأن " ينتج داخل علائقيته المنتظمة جهازاً مفهوماً يؤمن المضامين المعرفية من جهة، ويبني دائرة الاشتغال التأويلي داخل أنساق الثقافة بما يتلاءم وخصوصية الخطاب من جهة ثانية، ثم إن هذا الجهاز المفهومي يعتبر أداة فعالة في تحديد هوية الخطاب نفسه وذلك أثناء تداخله مع الخطابات الأخرى واستحالة فرزها والتمييز بينها"⁽¹⁵⁾، هكذا فقط يمكن لخطاب النقد الثقافي أن يستقل بمنهجيته عن باقي المنهجيات الأخرى، فالأدوات هي بنيات معرفية غير بريئة، وهي تابعة لنموذجها المعرفي الذي قذفها في حركية التاريخ، فهي لا تشتغل بمعزل عنه، لأنها تبقى حاملة في صلبها فريدة نموذجها المستبطن.

وفق هذا المتصور، فإن النصوص التي ينتجها النقد الثقافي ليست وحدات معزولة ومقذوفة بنمط عشوائي، بل هي نصوص تنتمي إلى الثقافة بمفهومها الأوسع؛ إنه المفهوم الذي يتضمن "مجموع الأنشطة أو الفاعليات الانسانية التي تتجلى في السلوك العملي والعقلي معا، وهو سلوك قابل للتعليم والتداول من ثنايا النظم والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والعلمية والعقائدية والفنية... إلخ"⁽¹⁶⁾، وهذا المجموع من الأنشطة والفاعليات الانسانية تنتجه وتسهر عليه مؤسسة ما؛ مؤسسة بالمفهوم الثقافي والاجتماعي، وهذه المؤسسة تضطلع بمهمة إنتاج هذا النص وحمايته والمحافظة على خصائصه الثقافية،

فيتحوّل هذا الانتاج إلى تمثّل ما ينتج صورة موجّهة نمطيًا بأفعال الثقافة، والصورة هي " التمثيل المجازي لفكرة من الأفكار، كل أمر أحال إدراكه إلى أمر آخر- ماديًا كان أم معنويًا واقعياً كان أم متصوّرًا- يتم فيها نقل صورة الأمر الأول أو دلالته إلى الأمر الثاني المحال إليه"⁽¹⁷⁾، وهكذا، فإن طبيعة النصوص التي يستهدفها النقد الثقافي ليست ذات بنية أو موضوع صلب، بل هي تمثيلات مجازية لمكونات وإدراكات اجتماعية متحوّلة وغير ثابتة.

03/ النقد الثقافي والكفاءة المنهجية

للخطاب مضامين ينطوي عليها ويتساقق بها، وينتشر بها على رقعة الثقافة، وهذا الانتشار لا بدّ له من كفاءة مخصوصة، هذه الكفاءة تحرّره من ستاتيكية المعرفة، وتدخله في إطار حوارية منتجة مع أنواع الخطابات الأخرى، بحيث إنّ "مادتها أو مضمونها يتشكّل من مجموعة من التراكمات الدلالية والمعرفية والتخييلية، تتحوّل في نهاية المطاف إلى خطاب ذي صبغة شمولية"⁽¹⁸⁾، هذه الشمولية ليست بالمفهوم البنيوي المحايث، بل بالمفهوم البينيّ الجينالوجي المركّب، وإذا كان كذلك، فكفاءة الإنجاز لا بدّ وأن تكون منسجمة مع هذه المكونات المنصهرة في تشكيلات خطابية محكمة ومتناسقة، وقد يقول قائل بأنّ كفاءة خطاب النقد الثقافي تأتي من كفاءة العناصر الخطابية المكوّنة له، إلّا أننا نتصوّر بأنّ هناك كفاءة مخبوءة في عمق النموذج ليست بالضرورة حاصل الكفاءات التي انصهرت في خطابه، بل هي كفاءة مركّبة تمتلك القدرة على عجن كل أنماط المكونات الاجتماعية والثقافية لهذا الخطاب، وتخريجها في تشكيلة خطابية منتظمة لها نسق جديد يحكمها.

يعتبر المفكر والنّاقّد آرثر ايزابجر *Arther Berger* النقد الثقافي نشاطًا يستدعي بالضرورة الحركية المستمرة والديمومة التفاعلية، وكفعالية يضمّ في آلياته الإجرائية والتحليلية عديد المناهج والاتجاهات المعرفية، فحسبه " إنّ النقد الثقافي نشاط وليس مجالًا معرفيًا خاصًا بذاته"⁽¹⁹⁾، لذلك، لا يمكن زجّ النقد الثقافي ضمن منهجية مغلقة وصارمة، لأنّه حاصل قراءات لا يحكمها ثابت بنيوي واحد، بل هي قراءات موزّعة على الفكريّ والجماليّ والفلسفيّ والايديولوجيّ... إلخ، وبالتالي فهي ليست منسجمة بالمفهوم المنهجي الضيق والمباشر، فلا يمكن أبدا تخطيط منهج انطلاقًا من تضافر مجموعة من المناهج، فالمنهج وحدة موضوعية مستقلة، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تقبل هذه الوحدة بالانتماء إلى وحدة أخرى تماثلها، ومن ثم، يعسر علينا تصوّر النقد الثقافي كمنهج، مادام المفهوم المباشر للمنهج

لا يتماشى مع مفهومية النقد الثقافي في حد ذاتها، هذا فضلا عن أنّ النقد الثقافي لا يكتفي بالأدبية والفنية والجمالية التي عهدتها النقد الأدبي التقليدي، وإنّما يتجاوز بالنص إلى الثقافة وكشف أنساقها وخطابها والنظر إلى النص باعتباره واقعة ثقافية.

يرفض النقد الثقافي كفعالية ما بعد بنويّة فكرة البحث عن الجماليات في النصوص بمفهومها المحدث لغة، بل يتجاوز هذا العقل اللغوي الصارم إلى عقل سيميائي منتج للدلالة ومؤول لها، فهو يعتقد بأنّ الجماليات هي مكنن غير بريء لأنساق الثقافة بشقّ محمولاتها المتحيّزة، هذا ما يستدعي وعيًا وممارسة تفكيكية تنفذ إلى داخل النصوص والخطابات، لتخرق حجبا المضللة، وتزحزح بنياتها المترسّبة، بحثا عن المختلف داخل المؤتلف، وعن اللامقول داخل المقول، فهناك بالفعل حوادث ووقائع ومرموزات ثقافية مخبوءة تحت غلاف النص/ الخطاب، ولا بدّ من كشف تمظهراتها، ونسف مختلف أشكال السّلطة والهيمنة المؤسّساتية التي تنطوي عليها، وتحليلها وإبراز من يقف وراء انتاجها، وهذا هو مكنن الانتقال الذي حدث في عرف القراءة النقدية المعاصرة: من القراءة الجمالية إلى القراءة الثقافية.

يتصوّر الكثير من النقاد أنّ النقد الثقافي لا يمكن أن يكون فرعاً من فروع المعرفة، بل هو فعالية تستعين بنظريات ومفاهيم لبلوغ معارف أخرى، حيث يذهب الناقد العربي محسن جاسم الموسوي المذهب نفسه "فهو يسقط في تعريفه للنقد الثقافي صفة النشاط أو المجال المعرفي، ليعتبره فعالية قرائية، أكثر منه فرعاً معرفياً، الأمر الذي يجعل هناك تعدّد وتباين انتماءات النقاد الذين يشتغلون فيه"⁽²⁰⁾، إلّا أنّنا لا نتفق مع الموسوي في نفيّه صفة النشاط عن خطاب النقد الثقافي، فمفهوم النشاط على حسب توصيفه يقترب من حدود المنهج الضيق، وهذا أمر يجافي الصواب، فالنشاط اشتغال مرّن ومفتوح على أكثر من فعالية، بل هو ميدان لكلّ الميادين، ومسرح للتحليل الذي لا يحده مرجع أو منهج، وحتى مفهوم المجال ينطبق عليه التحليل نفسه، فالمجال هو مساحة شاسعة من المحمولات المعرفية والقراءات المتراكمة والتصورات الذهنية المنتجة حول نظرية ما أو نظريات عدّة، فلماذا يتحرج الموسوي من كلمة المجال وفي وسعها دلاليّاً أن تنطبق على مفهوم النقد الثقافي بشكل سلس ومرن؟ ثم نلاحظ أنّه قد استعمل مفهوم الفعالية القرائية كبديل تعريفّي ومفهومي للنقد الثقافي، ونحن نرى أن الفعالية القرائية هي ممكن واحد من ممكنات عدّة لأدوات النقد الثقافي وحيله في كشف المخبوء والمضمّر داخل النص/ الخطاب، غير أنّنا لا نجد بدّاً من الاعتراف أنّ النقد الثقافي ليس بمنهج نمطي له حدود معينة، إنّما هو نشاط انساني معرفي يتناول مختلف

المنجزات الفكرية والمعرفية والخطابات الحاملة لأنساق تاريخية أو تداولية اجتماعية، بل حتى الخطابات المهمة كالإعلانات...⁽²¹⁾ ، وفي هذا التعريف إشارة إلى انتباه النقد الثقافي إلى المسكوت عنه داخل النصوص والخطابات، وإلى ذلك المهمش/ المستبعد الذي أقصته النصوص الرسمية للمؤسسة، وكأنّ النقد الثقافي فعالية محمولة في يد صاحبها يكشف بها ألاعب المؤسسة وما تنطوي عليه من تزيف للحقيقة/ الوعي، بل يسعى إلى كشف التحيزات الكبرى لمختلف الخطابات التي تبتلع الواقع الموضوعي، وتحاول تقديم تمثيل تزييفي للتاريخ/ الحقيقة/ الإنسان.

إنّ النقد الثقافي فضلا عن هذا " يستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية من المساس به أو الخوض فيه، إذ كيف للنّاقد الأدبي أن يخوض في العادي والمبتذل والوضع اليومي والسوقي بعدما تمهد كثيرا في قراءة النصوص المنتقاة والمنتخبة التي يتناقلها نقاد الأدب ودارسوه"⁽²²⁾، فهو نشاط مشاكس ضد النصوص الرسمية والنصوص المنتقاة والنصوص الصروح بمفهومها المتعالي، لأنّ قيمها التي تبثها قيم مغشوشة اجتماعيا/ ثقافيا لأنها متحيزة في قراءاتها، وتعميمية في تحاليلها.

كما تفضلنا سابقا، فالنقد الثقافي ليس له وجود صلب واضح كمنهج في النقد أو نظرية في فهم النصوص والخطابات، ف" من سنن هذا النقد أن يستفيد من مناهج التحليل المعرفية من مثل تأويل النصوص ودراسة الخلفية التاريخية، إضافة إلى إفادته من الموقف الثقافي النقدي والتحليل المؤسسي. إنّ الذي يميّز النقد الثقافي الما بعد بنوي، هو تركيزه الجوهري على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح النصوي كما هي لدى بارت ودريدا وفوكو"⁽²³⁾، ومن ثمّ، فهو يقتات على موائد التخصصات وليست له استقلالية منهجية تخص مفهومه ومصطلحه، وربما كان هذا مناسبا له من الناحية العملية، حتى ينسجم مع عقيدته النظرية، فهذا النوع من النشاط لا يكتفي بأداة تحليلية واحدة، بل بخليط من الأدوات التي يسعف بعضها بعضها في معرفة مكامن الترسب الايديولوجي/النسقي، وهي مكامن ليس بمقدور أداة واحدة كشفه وتحليله وتفكيكه، فهو ينوع الأدوات على حسب تركيبات الأنساق التي تتمثل داخل النص/ الخطاب، وكي لا يتهم النقد الثقافي بأنّه يؤسس لأيديولوجية ما، فهو ينتقل بحرية من أية نقطة في النص/ الخطاب، ومن أي موضوع شاء، وهذا ما يفسّر رفضه لفكرة المنهج، لذلك، قامت دراسات النقد الثقافي في غالبيتها " بالاعتماد بشكل شبه كلي على مقولات ومصطلحات مناهج تحليلية متعدّدة، منها ما يخصّ التحليل الاجتماعي، ومنها ما يخصّ النقد

الأدبي، ومنها ما يخص التحليل السيميائي⁽²⁴⁾، ولعلّها في نظرنا كفاءة محسوبة لهذا النوع من النشاط، فالجمع بين أكثر من تصوّر في القراءة وبين أكثر من أداة يجعل القدرة على التحليل ذات فعالية مضاعفة، غير أنّنا يجب أن نشير إلى أنّ الأدوات المختلفة والمتباينة والتي تشغل داخل نسق تحليلي واحد من شأنها ألاّ تنسجم عملياً/ إجرائياً مع نظيراتها في النسق نفسه، وهذا من جملة ما عيب على هذا النوع من النشاط، فاختلاف الأدوات في بنياتها المفهومية من شأنه أن يحدث نوعاً من الإرباك في التحليل، ما يعود بالسلب على ناتج القراءة، وهو ناتج يتهدّده فح السقوط في لحظة تزييف الثقافة بدل من كشف هذا التزييف، فالناقد الثقافي المتمرس ولكي يصل إلى درجة عالية من امتلاك مفاتيح الشمولية في المقاربة الإجرائية، عليه أن يمتلك إحاطة شاملة بمختلف مجالات وخطابات وروافد هذا النقد، بل بأدواته أولاً، فالأدوات بنيات غير بريئة، ولعلّها محمولات غريبة اضطلعت بخصوصية الذات الغربية بناء ووظيفة، من خلال "إعادة صياغة إشكالات الواقع الغربي على الرغم من اختلاف الظروف والسياقات التي تشكّلت في إطارها"⁽²⁵⁾، غير أنّه "لا يمكن أن نتحدّث عن النقد الثقافي بدون معرفة واسعة بالميادين والمعارف والنظريات الأدبية والإعلامية والثقافية والمقارنة والمدارس والاتجاهات والأفكار وسياقات ظهورها وأنساق نموّها وانكماشها داخل الخطابات"¹، فامتلاك الناقد لعدّة معرفية ومنهجية، مع الوعي الثقافي لمقاربة النصوص والخطابات، يسمح حتماً بكشف حيل مختلف الأنساق الثقافية المضمرة غير الواعية في النصوص والخطابات والغوص في أعماقها.

خاتمة

في ختام هذا البحث، نخلص إلى جملة من النتائج أهمّها:

- يتركز النقد الثقافي على صناعة نظرية مخصصة، وهي صناعة بعيدة كل البعد عن منهجية صارمة متحكّمة في المقولات والمفاهيم والمناهج، بل هي اشتغال دؤوب نحو فتح المعرفة على مضامين لا تتحايت بنيويّاً مع منطلقاتها، ولا تلقي بالا إلى نصوصها التأسيسية، بقدر ما هي نقد متواصل، وتفكيك جذري للنمطي/ الجاهز من المعارف والمفاهيم.
- ينتج النقد الثقافي معرفة مخصصة به، وهي معرفة ليست موجّهة منهجياً، بل هي نافذة في كلّ الخطابات، وهي متضمّنة داخل كل التحليلات، إنّها نوع من المعرفة التي تنتبه إلى

- التحيزات الفاضحة فتفكّكها، وإلى الحيل النّسقية فتفضّحها، فهي معرفة جاهزة متضمنة داخل نموذجها، وليست ادعاء مسبقاً أو تأسيساً منهجياً مفترضاً.
- لإنجاز الوعي بنسقية ما، لابدّ من كفاءة ناجزة ومنجزة، وكفاءة النّقد الثقافي ليست حاصل الكفاءات التي تقذفها القراءات المشكّلة لخطابه، بل هي كفاءة جينالوجيّة خفيّة، انصهرت بها كل الممكنات الأخرى، وصارت تنقاد لفعل التّحليل داخلها.
 - ليس النّقد الثقافي منهجاً، ولا يقبل أن يتقوّل داخل منهج، فهو نشاط رحب من القراءات، وفعاليّات متباينة من التحليلات، وهارمونيّة متجانسة من المقولات والقضايا والإدراكات، ولا يعتدّ بصرامة ما في التحليل، ولا بنمط جاهز من المقاربات، بل يسعى إلى ابتكار قراءته أثناء فعل التّحليل ومحايا له، فقراءته للتّصوص والخطابات إنّما هي قراءة مناوئة لا تهدأ بيقين، ولا تتركز إلى حقيقة.
 - يحتاج النّقد الثقافي إلى فعاليات أكبر للتّحليل، وإلى مضامين أوسع للتّععيد، فحلّم كل نظريّة هو الوصول إلى درجة عاليّة من اليقين، وكذلك النّقد الثقافي، لابد أن يصير إلى نظرية خالصة في التحليل، حتى وإن كانت مبنيّة على فتات الموائد الأخرى من التّخصصات.

قائمة المصادر والمراجع

01/ المراجع

- [1] آرثر ايزابرجر: النقد الثقافي، تر: وفاء إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، ط1، 2003.
- [2] حمو النقاري: مفاهيم التفلسف الغربي معجم تحليلي عربي، المؤسسة العربية للفكر والابداع، بيروت، ط1، 2018.
- [3] حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2007.
- [4] سمير الخليل: النقد الثقافي والممارسات الثقافية للخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2024.
- [5] ستيوارت سيم وبورين فان لرون، النظرية النقدية، تر: جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط1، 2005.
- [6] صلاح قنصوة: تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت القاهرة، ط1، 2007.
- [7] طارق بوحالة: أسس النقد الثقافي وتطبيقاته في النقد العربي المعاصر، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2021.

- [8] عبد الله الغدامي: النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط3، 2005.
- [9] فتحي منصورية: في برادigma العقل التأويلي، منشورات المثقف، باتنة الجزائر، ط1، 2020.
- [10] فريد لميني: الفلسفة والنقد: مرصد إبستمولوجيه، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2016.
- [11] ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط3، 2002.
- [12] محمد جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
- [13] محمد ابراهيم عبد العال: النقد الثقافي نحو منهجية التحليل الثقافي للأدب، مجموعة بيت الحكمة للثقافة، القاهرة، (د.ط)، 2023.
- [14] نصيرة علاك: محاضرات في النقد الثقافي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2023.
- [15] نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005.

02/ المجالات

- [1] رقية بلعدي: سؤال كونية الثقافة ومستقبل الإنسان عند طه عبد الرحمن، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة تبسة الجزائر، ع 16، ديسمبر 2018.
- [2] مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 63، 2004.

التهميش والاقتباس

- (1) سعيد يقطين، الادب والمؤسسة والسلطة، نحو ممارسة أدبية جديدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2000، ص 76.
- (2) سمير الخليل، النقد الثقافي والممارسات الثقافية للخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2024، ص12.
- (3) ستيوارت سيم وبورين فان لاون، النظرية النقدية، تر: جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2005، ص 49.
- (4) مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 63، 2004، ص107.
- (5) عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط3، 2005، ص 34.
- (6) نصيرة علاك: محاضرات في النقد الثقافي، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2023، ص14..
- (7) ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط3، 2002، ص 308.

- (8) نصيرة علاك، محاضرات في النقد الثقافي، ص 20.
- (9) عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 83
- (10) فتحي منصورية، في براديجما العقل التأويلي، منشورات المثقف، باتنة الجزائر، ط1، 2020، ص110.
- (11) صلاح قنصوة: تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت القاهرة، ط1، 2007، ص 5.
- (12) سمير الخليل: النقد الثقافي والممارسات الثقافية للخطابات، ص 356.
- (13) آرثر ايزابرجر: النقد الثقافي، تر: وفاء إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة مصر، 2003، ص30.
- (14) نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005، ص05.
- (15) فتحي منصورية، في براديجما العقل التأويلي، ص28.
- (16) صلاح قنصوة: تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، القاهرة، ط1، 2007، ص14.
- (17) حمو النقاري: مفاهيم التفلسف الغربي معجم تحليلي عربي، المؤسسة العربية للفكر والابداع، بيروت، ط1، 2018، ص150.
- (18) فريد لميني: الفلسفة والنقد: مراصد إبستمولوجية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2016، ص28.
- (19) محمد جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص12.
- (20) طارق بوحالة: أسس النقد الثقافي وتطبيقاته في النقد العربي المعاصر، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2021، ص110.
- (21) سمير الخليل، النقد الثقافي والممارسات الثقافية للخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2024، ص09
- (22) سمير الخليل، المرجع نفسه، ص09.
- (23) حفاوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2007، ص49.
- (24) محمد إبراهيم عبد العال، النقد الثقافي نحو منهجية التحليل الثقافي للأدب، مجموعة بيت الحكمة للثقافة، القاهرة، (د.ط) 2023، ص15.
- (25) رقية بلعدي: سؤال كونية الثقافة ومستقبل الإنسان عند طه عبد الرحمن، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة تبسة، ع 16، ديسمبر 2018، ص 225.